علي باشـــــــا مبارك*

١٨٢٤ — ١٨٩٣

زعيم نهضة العلم و التعليم فى عصر اسماعيل

بقلم الاستاذ الجليل عبد الرحمن بك الرافعى

أعماله فى عهد اسماعيل

لما تولى إسماعيل الحكم ألحق المترجم بحميته ، ثم جعله ناظراً على القناطر الخيرية ، وكانت إلى ذلك الحين لم تستخدم أبوابها الحديدية المعدة لاقفال عيونها ، والمانع من إقفالها ماقرره المهندسون وقتئذ من أن القناطر لاتحتمل ضغط المياه قبل تقويتها ، وترتب على ذلك أن معظم المياه تحولت إلى فرع رشيد ، وحرم فرع دمياط مرور المياه فيه ، فلما عرض الأمر على المترجم ارتأى إقفال قناطر فرع رشيد لتغذية فرع دمياط ، فعمل الخديوى برأيه ، وأمر باقفالها ، فانحدرت المياه إلى فرع دمياط ، ونالت البلاد التى تروى منه منافع الرى وخيراته ، وأما الخلل الذى كان متوقعاً حصوله فى بعض عيون فرع رشيد فقد تلافاه المترجم بحكمته ومهارته إذ أقام جسراً من الخشب أحاط بالقناطر ، فنشأت حولها جزيرة من الرمل حفظتها من ضغط المياه ، وهكذا تبين صواب الرأى الذى ارتآه على باشا مبارك.

ولما حفر رياح المنوفية أحيل على المترجم إنشاء قناطره ومبانيه ، فأقامها على أحسن نظام.

وفى سنة ١٨٦٥ انتدبته الحكومة المصرية عضواً عنها فى اللجنة التى ألفت لتقدير الأراضى التى صارت حقاً لشركة قناة السويس طبقاً لحكم الامبراطور نابليون الثالث ، فأدى هذه المهمة خير الاداء .

(*) هذا هو القسم الثالث من سلسلة البحث الذى بدأنا في نشره من العدد الحادى عشر من السنة الاولى للمجلة (مارس سنة ١٩٣٢)

وكالة وزارة المعارف

وفى سنة ١٨٦٧ جعل وكيلا لوزارة المعارف العمومية (ديوان المدارس) وكان يتولى هذه الوزارة شريف باشا الوزير المشهور، فتقلد المترجم منصبه الجديد مع بقاء نظارة القناطر الخيرية فى عهدته؛ ويبدأ من ذلك الحين عهد جديد للمترجم ، إذ صار له بحكم منصبه النفوذ الكبير الذى يسمح له باتخاذ إصلاحاته فى دائرة التعليم العام .

كان من مزايا المترجم أنه يتقن كل عمل يتولاه ، ويبذل كل مافى وسعه ليقوم به على الوجه الأكمل ، فانتهز ندب الخديوى اسماعيل إياه لرحلة مالية إلى باريس عقب تعيينه وكيلا لوزارة المعارف، وأخذ يستكمل معلوماته عن التعليم ونظام المدارس فى فرنسا ، ليقتبس مايراه صالحاً لمصر ، ومع أن رحلته هذه لم تتجاوز خمسة وأربعين يوماً، بما فيها الذهاب والاياب، فقد اطلع على برامج التعليم فى المدارس الفرنسية والكتب المقررة فيها ، ودرس أيضاً نظام المجارى المبنية تحت الأرض فى باريس.

توليته وزارة المعارف والاشغال

وبعد عودته إلى مصر أنعم عليه اسماعيل سنة ١٨٦٨ برتبة الميرميران ؛ فصار يعرف من ذلك العهد بدى باشا مبارك ، وأسند إليه وزارة المعارف والأشغال ، وإدارة مصلحة السكك الحديدية ؛ وبعد قليل ضمت إليه نظارة ديوان الأوقاف ، فجمع بين هذه المناصب الرفيعة مع بقائه ناظراً للقناطر الخيرية واتحافه بالهبة .

العصر الذهبى فى حياة المترجم

وهنا يبدأ العصر الذهبى فى حياة المترجم ، وهو العصر الذى حفل بالأعمال العظيمة التى خلدت اسمه فى تاريخ مصر الحديث وخاصة فى نهضتها العلمية .

وأول مايلفت النظر فى هذا الدور من حياته، كفاءته الممتازة فى إضطلاعه بأعباء الوزارات المختلفة ، فقد كان فى وقت واحد وزيراً للمعارف ، والأشغال ، والأوقاف ، ومديراً عاماً للسكك الحديدية ، وناظراً للقناطر الخيرية ، وهى مهام جسام ، تنوء بالعصبة من الرجال ، ولكن على باشا مبارك قام بها جميعاً ، وأظهر من الكفاءة وقوة الارادة والجلد على العمل مايدعو حقاً للاعجاب ، وصدقت كلمته المتواضعة التى قالها عن نفسه فى هذا الصدد « فبذلت جهدى ، وشمرت عن ساعد جدى فى مباشرة تلك المصالح، فقمت بواجباتها »

وهنا تتجلى ميزة كبيرة للمترجم ، تطالعنا بناحية من نواحى شخصيته، وهى مقدرته على الاضطلاع بالمهام العظام ؛ فقد يكون لعلى باشا مبارك أنداد فى العلم والذكاء بين زملائه الذين

تولوا مختلف الوزارات ، والمناصب العالية ، ولكننا نعتقد أنه بذ أقرانه فى الجمع بين مزايا متعددة ، وهى الكفاءة ، والجلد على العمل ، والاخلاص والزاحة فى أداء واجبه ، وإتقان الأعمال الكبيرة التى تعهد إليه ، على ماتقتضيه من جهود ومتاعب ، فالرأس الذى يسع وزارات المعارف ، والأشغال ، والأوقاف ، مع إدارة مصلحة متشعبة الأعمال كالسكك الحديدية ، والكفاءة التى تضطلع بكل هاتيك للصالح ، والهمة التى تصرف شؤونها المختلفة ، وتبتكر لها المشاريع الجمة ، كل ذلك لا يصدر إلا عن نبوغ فذ ، وهذا وحده يعطينا فكرة صادقة عن شخصية المترجم.

وزع على باشا مبارك أوقاته بين تلك الوزارات المختلفة ، فخصص نصف النهار من الصباح إلى الظهر للمعارف والأشغال والأوقاف ، ومن بعد الظهر إلى الغروب لادارة السكك الحديدية.

فى وزارة المعارف

كانت معظم جهوده موجهة إلى ترقية شؤون التعليم فى البلاد .

نقل المدارس إلى درب الجماميز

وأول أعماله أنه نقل المدارس من العباسية إلى درب الجماميز ، وذلك أنه رأى مايتكبده التلاميذ وأهلوهم والأساتذة من المتاعب والمشاق والنفقات فى ذهابهم إلى العباسية ، وإيابهم منها ، فاستصدر من الخديوى اسماعيل إذناً بنقل المدارس إلى درب الجماميز ، وخصص لها سراى الأمير مصطفى فاضل ، فأصلحها على باشا مبارك وجعلها على استعداد لايواء المدارس والمعاهد ، وخصص سلاملك السراى لوزارة المعارف ، وجعل كل مدرسة فى ناحية من السراى ، فصارت أشبه ماتكون بالجامعة ، وجعل بها أيضاً وزارة الأشغال ، وديوان الأوقاف ، فسهل عليه القيام بأعباء الوزارات المختلفة .

ومع اضطلاعه بأعباء هذه الوزارات كان لاينفك يعنى بتفقد أحوال التلاميذ والمعلمين فى المدارس ، ويدخلها كل يوم ليشهد بنفسه سير التعليم فيها ، وليطمئن على حسن نظامها وقيام المدرسين بواجباتهم .

لائحة التعليم وإنشاء المدارس الابتدائية

وقد وجه عنايته ، منذ تولى وكالة الوزارة ، إلى إصلاح التعليم فى المكاتب ، وتحويل مايمكن تحويله من الكتاتيب إلى مدارس ابتدائية نظامية .

فوضع لذلك لائحته المشهورة بلائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ التى نظمت المدارس على اختلاف درجاتها .

ودعا طائفة من المشتغلين بالتعليم ليراجعوا المشروع ويبحثوه ويبدوا آراءهم فيه ، فدرسوه وأقروه ، وصدر أمر الخديوى باجراء العمل بمقتضاه .

وأنشئت فى عهده أولى المدارس الابتدائية النظامية فى القاهرة وعواصم المديريات .

وكان لاجتماع وزارة المعارف ونظارة ديوان الأوقاف فى يده أثر كبير فى نهضة التعليم ، لأنه بما له من سلطة النظر على الأوقاف الخيرية استطاع إعداد كثير من الأمكنة الموقوفة لجعلها معاهد للتعليم بعد إصلاحها ، ولولم تكن له هذه السلطة لبقيت هذه المبانى معطلة لاينتفع بها ، ولعجزت الحكومة عن النفقات التى يقتضيها إنشاء معاهد جديدة ، وكذلك أمكنه بما له من حق الاشراف على معاهد العلم الموقوفة ، أن ينظمها ويحولها إلى مدارس نظامية ، فأحيا هذه المعاهد بعد ما درست فى أيدى نظار الوقف الخاملين ، وكذلك أحسن إدارة أموال الأوقاف الخيرية ، واستخدم جانباً منها فى الانفاق على التعليم ، بعد أن كانت تبدد وتضيع هباء .

وجعل على أهالى التلاميذ المقتدرين مصروفات قليلة تؤخذ منهم برغبتهم على حسب اقتدارهم ، مع ترك المباقين مجاناً ، واستوفى نفقات المدارس من إيراد الأوقاف الخيرية الموقوفة على المكاتب وغيرها من وجوه الخيرات ، وخصص لها الخديوى إسماعيل إيراد أطيان تفتيش الوادى بالشرقية ، كما منحها بعض الأملاك التى آلت إلى بيت المال من بعض التركات ، فكانت هذه الموارد ينفق منها على تلك المدارس عدا المصروفات الضئيلة التى يدفعها أهالى التلاميذ ذوى اليسار والاقتدار .

معلمو المدارس

إن وضع نظام صالح للتعليم يقتضى توفير العدد الكافى من الأساتذة الأكفاء ، وقد حل على باشا مبارك هذه المعضلة بما أوتى من خبرة ، ونظر صادق ، وعزيمة ماضية ، فأنشأ « دار العلوم » كما سيجىء بيانه ، لتخريج أساتذة اللغة العربية ، واختار لتدريس بقية العلوم ، كالرياضيات والتاريخ والجغرافية واللغات الأجنبية نجباء التلاميذ المتقدمين ممن أتموا دروسهم فى المدارس العالية ، كالمهندسخانة ، ومدرسة الحاسبة ، ومدرسة الادارة (الحقوق) ، بأن يجعلوا أولا معيدين لدروس المعلمين زمناً ، ثم يصيرون معلمين استقلالا .

دار العلوم

هى من أجل منشآت على باشا مبارك ، أسسها سنة ١٨٧٢ ، والغرض الأصلى منها تخريج أساتذة اللغة العربية والآداب للمدارس الابتدائية ، ثم لكافة المدارس .

ومرجع الفكرة فى تأسيسها ، أنه لما أنشئت المدارس الابتدائية واتجه العزم إلى الاكثار منها ، مست الحاجة إلى طائفة من الأساتذة لتدريس اللغة وآدابها فى المدارس الحديثة ، فارتأى

المترجم إنشاء مدرسة عالية دعاها « دار العلوم » لتخريج أولئك الأساتذة ، واختار تلاميذها من طلبة الأزهر ممن حفظوا القرآن الشريف ، وتلقوا دروس اللغة والفقه ، وقد اختيروا لهذه المدرسة بالامتحان ، واشتمل برنامج التعليم فيها على العلوم التي لا تدرس في الأزهر ، كالحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط ، مع إتقان علوم الأزهر ، من لغة ونحو وتفسير وحديث وفقه .

واختار المترجم للتدريس في دار العلوم جماعة من جلة العلماء الأكفاء في العلوم الأزهرية ، والعلوم العصرية ، وجعل التعليم فيها مجاناً ، مع دفع مرتب شهري للتلاميذ .

وقد أثمرت المدرسة ، وتخرج فيها أساتذة اللغة والآداب العربية للمدارس الابتدائية في القاهرة والاقاليم ، ثم للمدارس الثانوية والعالية ، وبعد إنشاء دار العلوم أتم خدمة أسداها المترجم لاحياء اللغة العربية وآدابها في مصر .

دار الكتب

أسست سنة ١٨٧٠

أنشئت دار الكتب سنة ١٨٧٠ ، ولتأسيسها مقدمات ترجع إلى عهد محمد علي ، فقد أنشأ مستودعاً لبيع مطبوعات الحكومة في بيت المال القديم ، خلف المسجد الحسيني ، ولما تولى اسماعيل الحكم أضاف إليها نحو ألفي مجلد من المخطوطات العربية والفارسية ، ابتاعها من تركة حسن باشا المناسترلي ، ثم تطورت الفكرة إلى إنشاء دار عامة للكتب .

ويستفاد مما ذكره علي باشا مبارك في الجزء التاسع من الخطط (ص ٥١) أن فكرة تأسيس دار الكتب ترجع إلى الخديوي إسماعيل ؛ فانه رغب في إنشاء مكتبة عامة تجمع الكتب المتفرقة في مخازن الحكومة ، ومكاتب الأوقاف ، وفي المساجد ونحوها ؛ وأمر المترجم بالنظر في ذلك ، فحقق الفكرة ، وأنشأ دار الكتب في سراي درب الجاميز بجوار المدارس .

ولكن يؤخذ مما جاء في الجزء الثالث من الخطط (ص ١٤) أن صاحب الفكرة في هذا المشروع الجليل هو علي باشا مبارك ذاته ، فقد قال في هذا الصدد :

« ثم ظهر لي أن أجعل كتبخانة خديوية داخل الديار المصرية ، أضاهي بها كتبخانة باريس ، فاستأذنت الخديوي إسماعيل باشا في ذلك ، فأذن لي ، فشرعت في بناء الكتبخانة الخديوية هناك أيضاً (بدرب الجاميز) ، وبعد فراغها جمعت فيها ما نشتت من الكتب التي كانت بجهات الأوقاف زيادة على ما صار مشتراه من الكتب العربية والفرنجية وغيرها ، وجعلت لها ناظراً ، ورتبت لها خدمة ومعاونين ، وعملت لها قانوناً لضبطها وعدم ضياع كتبها ، فجاءت بعون الله من أنفع التجديدات التي حدثت في عهد الخديوي إسماعيل باشا ، وحصل بها النفع العام للخاص والعام »

وقد ابتاع اسماعيل باشا مجموعة الكتب القيمة التى تركها أخوه الأمير مصطفى فاضل بعد وفاته وأهداها لدار الكتب .

وصرف على الدار من ميزانية المدارس، وفتحت أبوابها لطلاب العلوم والمعارف ، وسهلت لهم الاطلاع على كتب ومؤلفات ومخطوطات، ما كان يمكنهم الوصول إليها لولا إنشاء هذه الدار، فأدت ولا تزال تؤدى خدمات جليلة للنهضة العلمية والأدبية .

مدرج المحاضرات (الانفتياتر)

ورتب دروساً عمومية أو محاضرات دورية بالانفتياتر (المدرج) بمراى درب الجماميز سنة ١٨٧١ ، فعهد إلى النابهين من أساتذة المدارس إلقاء هذه المحاضرات لتثقيف أذهان الطلبة.

وكان يشجع هذه الحركة، فيحضر المحاضرات بنفسه، وحذا حذوه كبار الموظفين فى مختلف الوزارات ، وخاصة وزارة المعارف.

وكان يحضرها أيضاً، عدا طلبة المدارس العالية، فريق من طلبة الأزهر، وصاروا نواة دار العلوم التى أنشئت سنة ١٨٧٢ .

وتولى إلقاء المحاضرات طائفة من العلماء المشار إليهم بالبنان، فكان الشيخ حسين المرصفى يدرس الآداب العربية ، واسماعيل باشا الفلكى ناظر المهندسخانة يدرس علوم الفلك باللغة العربية، ومنصور افندى أحمد أحد أساتذة المهندسخانة يلقى محاضرات فى الطبيعيات ، والمسيو فيدال (باشا) فى فن السكة الحديدية ، وفرانس بك (باشا) كبير مهندسى الأوقاف فى المبانى، وجيجون بك ناظر مدرسة الفنون والصنائع فى الميكانيكا ، وبروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم فى التاريخ العام ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى فى فقه الامام أبى حنيفة ، والشيخ أحمد المرصفى فى التفسير والحديث ، والمسيو بكتيت فى الطبيعيات ، وأحمد بك ندا فى علم النباتات ، وغيرهم؟

عبد الرحمن الرافعى

فى العدد القادم

تجد تتمة هذا البحث ، ففيه يتناول الاستاذ الرافعى بك الكلام على : معمل الكيمياء والطبيعة ، أعمال على مبارك الهندسية ، انفصاله عن الوزارة ثم عودته فى وزارة نوبار باشا، فى عهد الخديوى توفيق ، الثورة العرابية ، فى وزارة شريف باشا ، فى وزارة رياض باشا، وفاته.